

## حوار العبد ومولاه\* ...

شرحها وعلق عليها

د . فيصل عبد الله - جامعة دمشق

لدينا اليوم ثلاث قصائد بابلية مكتوبة بلغة أكادية ولهجة بابلية، بالكتابة المسمارية المعروفة . سميت الاولى « القصيدة الربوبية ( أو الربانية ) أو Théodicée babylonienne كما وردت بالترجمة الفرنسية في كتاب : ديانا الشرق الادنى \*\* .. والثانية اسم المذب الحق Le Juste Suffrant والثالثة حوار السيد والعبد .

تعالج القصيدة الاولى مشكلة الالم والشر ونقيضهما العدالة الالهية . واما الثانية، يبدأ مطلعها بثلاث كلمات هي : «الاسبغ اله الحكمة» فهي الاخرى مناجاة ربانية وعذاب بريء يكشف عنه كاتب القصيدة . والثالثة « حوار العبد ومولاه » ، هي مناجاة عبثية ذاتية ، كتبت على شكل حوار بين عبد ومولاه .

لقد صنفت هذه القصائد بعد ترجمتها من الاكادية ضمن الادب الانساني الرافدي ويعد أقدم ما أبدعه الفكر الانساني في تاريخه ، اذ انها تعود الى القرن الثاني عشر، وربما الثالث عشر ، قبل الميلاد ، وان كان تحديد زمن كتابتها بالضبط غير ممكن ، ولكنها تمثل بالتأكيد المجتمع الرافدي والبابلي ، الذي بلغ شأواً كبيراً في الادب في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ، بعد مضي أكثر من خمسة قرون على حكم

---

\* ترجم هذا النص الى معظم لغات العالم . ولكن الترجمة الرئيسية والاحدث والمباشرة من اللغة الاكادية ، وهو ما قام به R. Labat وزملاؤه في المصدر المذكور آنفاً . ولا استبعد وجود ترجمات عربية متفرقة يتعلم ذكرها بسبب عدم وجود فهرسة او مكتبة متخصصة بالنشورات العربية في تاريخ الادب القديم .

ما نود قوله ان ترجمتنا هذه استندت على ترجمة الاستاذ Labat ، الا انها لم تتوقف عندها، فقد اخذنا ايضا من الترجمتين الانكليزية والالمانية . وقبل هذه وتلك ، من النص الاكادي ، فتمكنا من فهم كثير من المقاطع الاكادية ونقلها الى العربية بكلمات متقاربة . ونشر في هذا الصدد الى ان العمل اللغوي او الشعري يفقد الكثير من معناه عند ترجمته الى لغة اخرى . الا ان الامر يكون أقل خطورة ، عندما تكون الترجمة بين لغتين أختين ، أضف الى ذلك جهود المترجمين الاوربيين ، وخاصة مصدرنا المذكور . اذ جهد الاستاذ Labat في وضع المعنى والصياغة في قالب متين واكيد وآمين .

R. Labat, Les réligions du Proche - Orient, Paris 1970, p. 342 ss \*\*

---

دراسات تاريخية ، العددان ٤١ و ٤٢ ، اذار - حزيران ١٩٩٢

حمورابي صاحب القانون أو الشريعة الشهيرة باسمه ، واغتنى الفكر الديني والدينيو البابلي بارث سومر وأكاد الذي يعود الى الالف الثالث ق.م .

تتألف القصيدة التي سنورد ترجمتها من جديد هنا أي قصيدة العبد ومولاه من احد عشر مقطعا ، وتعالج موضوعا لا يبعد كثيرا عن موضوع القصيدتين آفتي الذكر . وهي حوار بين مولى وعبد .. قد يبدو الامر سهلا في البداية ، ولكنه يأخذ في التشابك والتعقيد لي طرح علينا مجموعة أفكار فلسفية متناقضة وعشبية ، لا تقل أهمية في طرحها الجريء عما يواجه انسان اليوم من مشكلات الحياة .

يبدأ المولى بدعوة العبد الى الاستماع الى ما سيقول وما يريد أن يقدم عليه من فعل . وسرعان ما يؤيده خادمه بلا تحفظ . ولكن السيد يرجع عما نوى ، فعله ، فيستنكف العبد ثانية استجابة لتبدل رغبة سيده ، جاهداً في ايجاد مبرر آخر أكثر اقناعا مما سبق . وهكذا دواليك ، فاذا أراد السيد الذهاب الى وليمة القصر أو وجد العبد له المبرر اللازم ، وإن قرر عدم الذهاب خلق له مبررا آخر مناسباً ، وإن أراد أن يشعل نار ثورة ضد القصر ، أو الزواج والحب ، أو التعبد والتقوى ، أو استثمار المال والتجارة ، أو الانصراف الى أعمال الخير ، بحيث يبدو الامر وكأن العبد يراوغ لانتقاد نفسه من غضب معلمه أو مولاه ، إلا أن الشاعر القديم قد استعرض بطرافة جميع الخواطر والهواجس الانسانية اليومية ، التي تظهر في نهاية المطاف أن لا حل لها يمكن تبنيه ، ولا نجاة الا بالموت ! قد يكون الجواب بالنفي بعد قراءتنا القصيدة ، اذ لا تكشف تماما عن نهاية واضحة ، ولس هذا قيمة ما نبحث عنه في قصيدتنا ، فهي تلقننا درساً في الحوار الذاتي الذي قد يكون متهوراً مندفعاً ، في البداية ، ومن ثم تهدأ النفس الثائرة باحثه عن حل عشبي قد يكون الاستسلام أو الموت ، ويطرح لنا الحوار مزايا النفس الانسانية ومزاجها ، فمن العيب واللامسؤولية وابتغاء الموت والخلاص ، تبدو لنا الشخصية المهتزة التشاؤمية . والتشاؤم والتفاؤل نقيضان ، وموجودان في كل نفس ، وقد يرجح أحدهما فيطبع النفس بطابعه . وهكذا عرفنا أقدم جذور التشاؤمية التي تعكس جزءاً من معاناة فلسفية ليست مقتصرة على عصر معين ، ومن جهة أخرى ، قد يكون الفنى السريع وكثرة النعم من العوامل التي اثرت على هذا السيد كما على كثير من أمثاله وابطرته . فال فراغ الفكري ، الذي يزداد خطره على ذوي النعم الكبيرة ، قد يؤدي بهم الى مصير مماثل .. عيب ومراوغة ، وضياح . ويبدو مثل هذا السيد للآخرين على أنه ناقد حاقد ، أو طامع لجأه أو مال أو عايت يتسلى بقتل الوقت ، مجبراً عبده على التكيف مع نواياه ورغباته . ونعلم من خلال أجوبة العبد ، أنه لا يتوانى عن مسامرة سيده ، والدخول في لعبة المراوغة والعيب .. إن السخرية والعشبية والقبح والذم الاجتماعي هي الصفات الواضحة في

الحوار ، وتنقل لنا أحيانا لهجة جدية وخطرة في طرحها للمشكلة ، وهذا ليس تناقضا وحسب ، بل يحمل معنى أعمق هو معنى الوجود الانساني . وهي المشكلة التي طرحتها جميع الديانات التي تلت هذا النص بقرون عديدة .

وختاما ، إذا أراد الانسان القديم التخلص من هذه المراوغة والتناقض في مواجهة مشكلاته الحياتية فليس أمامه الا لقاء ربه . انه أودع في الله كل الاجابات التي تبدو مستحيلة على تفكيره ؛ فما على الانسان وفق مفهوم ذلك العصر إلا أن يركع أمام الله . وهكذا كان أمر السيد الذي فكر في النهاية بارسال عبده الى منيته ، أو الموت ، لعل روحه تعود . وتحمل اليه الجواب ، جواب هذا التناقض الانساني . . ولكن العبد يسأل سيده اذا قتلتنى ماذا ستفعل بدوني ؟ انك لن تستطيع أن تعيش أكثر من ثلاثة أيام ! .

### حوار العبد ومولاه

المولى : أيها العبد ، اقترب مني !

العبد : نعم مولاي ، نعم !

م : اذهب ، أسرع ، وجهز لي عربة ، كي اذهب الى القصر )

ع : اذهب مولاي . اذهب . . سيكون لك فائدة ! عندما سيراك الملك ، سيفمرك كرماً .

م : ايه أيها العبد ، أنا لست ذاهباً الى القصر !

ع : لا تذهب ، مولاي ، لا تذهب ( فما أن يراك الملك حتى يرسلك حيث لا تريد ، ويدفعك في طريق مجهولة . وسيذيقك العذاب ليلَ نهار .

م : أيها العبد ، اقترب مني !

ع : نعم ، مولاي ، نعم !

م : أسرع ، احضر لي ماءً أغسل يدي وأتغدى )

ع : تغدّ مولاي ، تغدّ فوجبة طيبة ، تشرح القلب . . ان تأكل من رزق ربك ، وأن تغسل يديك . . فسيمضي نهارك . .

م : كلا . . كلا . . أيها العبد . . لن أتغدى !

ع : لا تتغد مولاي .. لا تتغد ، ان تجوع حتى تأكل ، ان تعطش حتى تشرب هذا  
ما يلزم الرجل )

م : يا عبد .. تعال بين يدي !

ع : أجل .. مولاي .. أجل !

م : اذهب .. وجهز لي عربة كي أذهب للصيد !

ع : اذهب مولاي اذهب . فالرجل الذي يتجول في الارياف جعبته مليئة ، والكلب  
الذي يتصيد ، يحظى بعظام يسحقها ، والغراب الذي ينطلق في الارياف يبني له  
عشاً ! والحمار الوحشي الذي يجوب المراعي يحظى بمزماره .

م : ولكن أيها العبد ، لا أريد أن أذهب للصيد !

ع : لا تذهب مولاي : لا تنهب ! فالرجل الذي يجوب الارياف ، يتعب فكره ،  
والكلب الذي يتصيد يسحق أسنانه ، والغراب الذي يطوف الارياف فمسكنه  
ليس إلا شقاً في جدار . والحمار الوحشي الذي يجوب المراعي ، لا مأوى له  
إلا البادية .

م : يا عبد ، تعال بين يدي .!

ع : نعم مولاي نعم !

م : سأقوم .. بثورة .!

ع : افعل هذا ، مولاي ، افعل ! اذا لم تثر ، فكيف ستلبس ، ومن سيعطيك  
لتملاً جعبتك

م : حسن .. أيها العبد ، ولكن لن أقوم بثورة !

ع : لا تفعل مولاي ، لا تفعل ! فالرجل الذي يثور ، إما أن يقتل ، أو يسلم جلدته ،  
أو تقتلع عيناه ، أو يعتقل ، ويلقى في السجن !

م : يا عبد ، أقدم !

ع : أجل مولاي ، أجل !

م : أريد أن أعشق امرأة !

ع : اعشق مولاي ، اعشق ! فالرجل الذي يعشق امرأة ، ينسى قلقه ويذهب  
وسواسه !

م : حسن أيها العبد ، لا أريد أن أعشق امرأة !

د. فيصل عبد الله

ع : لا تعشق مولاي ، لا تعشق ! فالمرأة كالبئر ، نعم ، كالبئر ، انها خزان ، انها لحد ، انها خنجر مشحوذ يقطع حنجرة الرجل !

م : ايها العبد ، تعال بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : اسرع ، اذهب واحضر لي ماءً اغسل يدي ، اريد تقديم الاضاحي الى ربي !

ع : افعل ، مولاي ، افعل ! ، فالرجل الذي يضحي الى ربه ، يكون قلبه سعيدا ، ويكسب حسنة فوق حسنة !

م : جيد ، ايها العبد ، لن اقدم الاضاحي الى ربي ! .

ع : لا تفعل ، مولاي ، لا تفعل ، هكذا تعلم ربك ان يتبعك كظلك ويطلب منك :  
(« اين عبادتي ؟ الا تستشيرني ؟ ») او اي شيء اخر ؟

م : يا عبد ، تعال هنا بين يدي ! .

ع : نعم ، مولاي نعم !

م : اريد ان اقترض مالا بالفائدة .

ع : اقترض هكذا ، مولاي ، اقترض ! فالرجل يحافظ على ماله ويضاعف الفائدة !

م : حسن ايها العبد ، ولكني لا اريد ان اقترض مالا بالفائدة !

ع : لا تقترض مولاي ، لا تقترض ! اقراض المال لذيد مثل حب المرأة ، ولكن ارجاعه اصعب من ولادتها ! اذ يبتلعون مالك ، ولا يتوقفون عن لعنك ! وينكرون عليك المال والفائدة !

م : يا عبد ، تقدّم بين يدي !

ع : نعم مولاي نعم !

م : اريد ان اخدم وطني !

ع : افعل هذا ، مولاي ، افعل ! فالرجل الذي يخدم وطنه ، فاعماله تسجل لدى الاله مردوك ! .

م : ولكن ايها العبد ، لا اريد ان اخدم وطني !

ع : لا تفعل ، مولاي ، لا تفعل ! اصعد على اطلال الماضي ، وتجول بينها ، وارقب  
الجمامج المختلطة بين فقير ونبييل ، فمن الذي صنع شرا ؟ ومن الذي صنع خيرا ؟

م : ايها العبد ، تعال بين يدي !

ع : نعم ، مولاي ، نعم !

م : ما هو الخير اذا ؟

دقْ عنقي وعنقك ؟

ان يرمي المرء نفسه في النهر ؟ هل هذا هو الخير ؟

من ذا الذي عَظَمَ حتى وصل الى السماء ؟

من هو عظيم حتى يحتضن الارض ؟

حسن ! ايها العبد ! سوف اقتلك ، وأجعلك تهلك قبلي !

ع : أجل ، مولاي ولكنك لن تعيش بعدي ثلاثة ايام !

\* \* \*

يبقى علينا الاجابة على سؤال اخير يتعلق بهذه المقطوعة الادبية الرافدية التي  
تعود لأكثر من ثلاثة آلاف سنة على الأقل . وهو ما هي صلة هذا كله بأدبنا العربي  
وهل يجب اعتباره الجزء القديم منه ، أم انه يبقى كما نقل الينا مترجما من لغات  
أوربية سبقتنا في ترجمته من لغته الاصلية الاكادية ؟

إذا أخذنا النص الانساني بحد ذاته ، فان المشكلات الانسانية التي يطرحها  
الكاتب ، من خلال معاناة اجتماعية وسياسية ، لا تختلف بكثير أو قليل عن معاناة  
الانسان في العصور اللاحقة ، عصور اليونان والرومان التقليدية أو العصور الاسلامية  
- المسيحية الوسطى أو عصورنا الحديثة ! ان النص يطرح لنا موقف العبث والحيرة  
امام ، الطريق الذي يجب أن يسلكه الانسان لمواجهة أوضاع اجتماعية وسياسية  
جائرة ، كما يطرح لنا موقف اليأس والاستسلام ! ليست المشكلة قائمة حتى اليوم . . ؟  
هل هناك من جواب أو نصيحة تسدى لمن هم في مثل تلك المواقف ! ان احدا لا يستطيع  
الجزم والتأكيد ، بل هنالك احتمالات وآراء ، وهناك العوامل غير المنظورة التي تفعل  
فعلها وتؤدي بالناس الى اتخاذ مواقف بعينها .

نخلص الى القول ، وهو القصد من هذا السؤال ؟ ان هذا الادب الذي يعود الى العصر البابلي - الاشوري في منتصف الالف الثاني ق.م. يمثل مجتمعا سالفًا لمجتمع اليوم ، ونعتقد أن كثيرا من مشكلات التراث التي استعصت على الفهم ، أو لاقت رفضا أو انطواء لعدم وضوح أسلوب التعامل معها ، تكمن في جهل الجذور البعيدة ، أي الأكثر بعداً من الأديان السماوية التي جاءت في مراحل متقدمة ، وكان المجتمع قد قطع أشواطاً بعيدة في مضمار الأدب وفلسفة الحياة . فالمطلوب من لغويننا وأدبائنا ان ينهلوا من هذا الأدب ، ويبحثوا في أطاريحه، مطلوب منهم تعلم لغته الأصلية القريبة من عربيتهم اليوم ، كي يقدروا قيمة هذا الشعر في ذلك الزمن المبكر ، ويطلعوا على أقدم فنون الشعر السلفي للشعر العربي .

